

السَّماور سعيد فائق

رُفِعَ أَذَانُ الْفَجْرِ.. انْهَضْ يَا بُنَيَّ، سَتَأْخُزُ عَنْ عَمَلِكَ.

من قراءة الفقرات الأربع
الأولى كيف تصف حياة علي
وأُمه؟

أَخِيرًا، وَجَدَ عَلِيٌّ عَمَلًا. مِنْذُ أُسْبُوعٍ وَهُوَ يَذْهَبُ إِلَى الْمَصْنَعِ. كَانَتْ
أُمُّهُ سَعِيدَةً وَرَاضِيَةً. أَقَامَتْ صَلَاتَهَا، وَأَكْمَلَتْ دُعَاءَهَا. دَخَلَتْ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ
يَغْمُرُهَا، إِلَى غُرْفَةِ ابْنِهَا الشَّابِّ الطَّوِيلِ وَالْعَرِيضِ الْمُنْكَبِنِ الَّذِي كَانَ غَارِقًا
فِي أَحْلَامِهِ بَيْنَ ضَجِيجِ الْمُحَرِّكَاتِ وَالْبَطَارِيَّاتِ الْكَهْرَبَائِيَّةِ وَمَصَابِيحِ الْإِنَارَةِ
وَزِيَوَاتِ الْمُحَرِّكَاتِ وَالْدَّيْزِلِ. كَانَ عَلِيٌّ غَارِقًا فِي الْعَرَقِ مُتَوَرِّدَ الْوُجُنَتَيْنِ كَأَنَّهُ
خَارِجٌ لِلتَّوَمَنِ الْمَصْنَعِ. كَانَتْ مَدْخَنَةُ الْمَصْنَعِ الْوَاقِعِ فِي "هَالِيْجِي أَوْغْلُو"¹
تَرْتَفِعُ بَوَاقِرًا، وَكَأَنَّهَا سَتَصِيحُ كَدِيكَ مَغْرُورٍ رَافِعٍ رَأْسَهُ يَنْتَظِرُ طُلُوعَ الصَّبَاحِ.

كانت حياة هادئة ملؤها
السعادة والفرح
والاطمئنان

اسْتَيْقَظَ عَلِيٌّ أَخِيرًا. حَضَنَ أُمُّهُ. سَحَبَ اللَّحَافَ لِیُغَطِّيَ رَأْسَهُ كَمَا يَفْعَلُ
كُلُّ صَبَاحٍ. دَغْدَغَتْهُ أُمُّهُ مِنْ قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ بَقِيَتَا خَارِجَ اللَّحَافِ.

صَجَّكَتْ كَفْتَاةً صَغِيرَةً بِسَعَادَةٍ بَعْدَ أَنْ وَثَبَ ابْنُهَا مِنَ الْفِرَاشِ، ثُمَّ عَادَ
وَسَقَطَ عَلَيْهِ. لَيْسُوا كَثِيرِينَ مَنْ هُمْ سَعْدَاءُ فِي هَذَا الْحَيِّ. مَاذَا تَمْلِكُ الْأُمُّ
سِوَى ابْنِهَا وَمَاذَا يَمْلِكُ الْابْنُ سِوَى أُمِّهِ؟ دَخَلَتْ غُرْفَةَ الطَّعَامِ يَحْتَضِنُ كُلُّ
مِنْهُمَا الْآخَرَ. تَفُوحُ رَائِحَةُ الْخَبْزِ الْمَحْمَصِ الرَّكِيَّةِ فِي الْغُرْفَةِ.

ما الذي أوحى لك به
استخدام الاستفهام في هذه
الفقرة؟

يوحي بأن الأم والابن
ليس لهما إلا
بعضيهما ، كما يوحي
بأن شيئاً ما سيحدث
يفرق بينهما

كَانَ الْمَاءُ يَغْلِي فِي السَّماور بِشِدَّةٍ! كَانَ عَلِيٌّ يُشَبِّهُ السَّماورَ بِمَصْنَعٍ يَخْلُو
مِنْ الْعَذَابِ وَالْإِضْرَابَاتِ وَالْحَوَادِثِ، فَهُوَ لَا يُنْتِجُ سِوَى الْبُخَارِ وَرَائِحَةِ الشَّايِ
الْمُعْتَقِ وَسَعَادَةِ الصَّبَاحِ. كَانَ عَلِيٌّ يَسْتَمْتِعُ عِنْدَ الصَّبَاحِ بِالسَّماورِ وَغَلَايَةِ بَائِعِ
السَّحْلَبِ الَّذِي يَقِفُ أَمَامَ بَابِ الْمَصْنَعِ. ثَمَ الْأَصْوَاتُ، بَوَقُ مَدْرَسَةِ "هَالِيْجِي
أَوْغْلُو" الْعَسْكَرِيَّةِ، وَصَفَّارَةُ الْمَصْنَعِ الَّتِي تَهْزُ أَرْجَاءَ الْخَلِيجِ، تُحْيِي أُمْنِيَّاتَ،
وَتَحْبِطُ طُمُوحَاتٍ أُخْرَى. ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ لِعَلِيٍّ رُوحًا شَاعِرِيَّةً، مَعَ أَنَّ الْأَحَاسِيْسَ

ما معنى أن ينتج السماور
سعادة الصباح؟

لأنه ينتج الشاي المعتق
فيسعد علي وأمه
بالاستمتاع بشربه في
جو شاعري مفعم
بالأحاسيس المرفهة

(1) أحد أحياء مدينة (إسطنبول) الصناعية، ويقع على خليج القرن الذهبي وسط المدينة.

المرهفة لعامل كهرباء بضجيج المصنع، كإيلاج باخرة من عابرات المحيط

في الخليج، إلا أننا -علي ومحمد وحسن- هكذا، في قلب كل منّا يقبع أسد.

قيل علي يد أمه، ثم لعق شفّتيه كأنه أكل قطعة سكر. كانت أمه تضحك، لقد اعتاد التصرف على هذا النحو كلما قبل أمه. كان يوجد أبيض وريحان في حديقة البيت الصغيرة. قطف علي بضغ ورقات ريحان، وفركها بين كفيّهِ وغادر مبتعداً، وهو يستنشق رائحة الريحان في كفيّهِ. هواء الصباح كان بارداً قليلاً، والخليج كان غائماً. التقى أصدقاءه عند رصيف القوارب، جميعهم كانوا شباناً أشداء. أبحر خمسة أشخاص إلى "هاليجي أوغلو".

يظهر علي في عمله كل جد واستمتاع وحماس، لكن ليس رغبة بإظهار تفوقه على زملائه، فقد كان مستقيماً، ولا يحب الاستعراض، مع أنه كان يُجيد عمله إلى أقصى درجة من المهنية، إذ تعلّم على يدي أشهر الكهربائيين الألمان في (إسطنبول) كان يحبّ علياً كثيراً، فأخلص في تعليمه كل أسرار المهمة؛ ليصبح مثله معلماً بارعاً لا يضاهيه أحد.

عاد في المساء إلى بيته سعيداً، مطمئناً من تقديمه أقصى جهده في عمله فريفاً واحداً مع زملائه. وبعدما حضن أمه، اتجه نحو المقهى المقابل ليلتقي أصدقاءه. ثم تدرج عائداً إلى بيته. كانت أمه تؤدي صلاة المغرب. ربض أمام أمه، وقال:

- سيغفر لي الله يا أمي.

بعد الأكل، غرق علي في قراءة رواية بوليسية. أمه كانت تحيك له كنزة صوفية، ثم تمدداً وناما على فراشين يفوح منهما عطر زهر الخزامى.

أيقظت الأم علياً بينما كان أذان الفجر يُرفع. كانت رائحة الخبز المحمص الزكية تفوح في الغرفة. كان الماء يغلي في السماور بشدة! كان علي يُشبه السماور بمصنع يخلو من العذاب والإضرابات والحوادث، فهو لا ينتج سوى البخار ورائحة الشاي المعتق وسعادة الصباح.

جاء الموت لأم علي كسيّدة جارية زائرة تَضَعُ على رأسها غطاءً كأنّها تستعدُّ للصلاة. كانت تُعدُّ الشاي كُلَّ صباح، وتُمتسي وهي تُعدُّ طعامَ العشاء لابنها، لكنها كانت تشعرُ بوخزٍ في قلبها، وَخَدَرٍ، وَتَعَرِّقٍ في أنحاء جسدِها المُتَغَصِّنِ عندما تصعدُ الدَّرَجَ مُسرَّعةً فَبِيلَ المساء.

ذات صباح، وقَبْلَ أَنْ تَوْقِظَ عليًا، وبينما كانت تُعَدُّ السَّمَاوَر، شعرتُ بدوارٍ، فَجَلَسْتُ مُتهالكةً على كُرْسِيِّ إلى جوارها. ذلكَ الجلوسُ، كانَ جلوسَها الأخير.

استغربَ علي تأخُّرَ أمِّه بإيقاظِهِ. وصلَ إلى مسامعِهِ صوتُ صَقَّارَةِ المصنع الحادِّ. مُخترقًا بنعومة رُجَاجَ التَّافِذَةِ المُغْلَقَةِ. وثَبَّ مِنْ فَرَّاشِهِ، وَقَفَ أَمَامَ بابِ غُرْفَةِ الطَّعام، شاهدَ أمُّه وقد أَخْنَتُ رَأْسَهَا على ذراعيها المُسْتَنِدِينَ على الطَّاولَةِ، ظَنُّهَا نائمةً. تقدَّمَ بهدوءٍ، أَمْسَكَهَا مِنْ كَتِفَيْهَا، ارتعدَ عندما أَحَسَّ ببرودةَ حالِها لَامَسَتْ شَفَتَاهُ وَجَنَّتْهَا.

ما نفعُ أمِّ الموتِ لا يَخْتَلِفُ عَمَّا يَفْعَلُهُ ممثِّلُ بارِعٍ، لكنَّ ما بَدَرَ مِنْهُ كانَ حَقِيقَةً.

عانقَها، وحَمَلَهَا إلى فَرَّاشِهَا، غَطَّاهَا بِاللَّحَافِ، وحاولَ تدفئةَ جَسَدِهَا الباردِ. تشبَّتَ بإعادةِ الحَيَاةِ إلى هذا الجسدِ الباردِ، ثُمَّ انهارَ فجأةً على الفراشِ إلى جوارِها عاجزًا. لم يستطع البُكَاءُ في ذلكَ اليومِ على الرِّغَمِ مِنْ رَغْبَتِهِ الجامحةِ في البُكَاءِ. توقَّدَتْ عيناهُ دُونَ دُمُوعٍ، نَظَرَ إلى المِراةِ، كانَ مُحْيَاةُ كَوَجْهِهِ امْرئٍ قَضَى لَيْلَةً بِيضَاءٍ إِثْرَ مُجَابَهَتِهِ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ في الحَيَاةِ.

لماذا لم يستطع عليُّ البُكاءَ على أمِّه؟

من هول الصدمة ، وكذلك لأنه لم يصدق موت أمِّه لذلك حاول جاهداً إعادة الدفء والحياة لذلك الجسم البارد

شعرَ عليُّ كأنَّ وَهْناً قد أصابَ جَسَدَهُ، وَكَأَنَّ الشَّيْبَ قد غَطَّى شَعْرَهُ، وَأَلَمًا شديداً وانحناءةً في ظَهْرِهِ، وَكَأَنَّهُ قد هَرِمَ كَشَخْصٍ تجاوزَ المِئةَ مِنْ عُمُرِهِ. لماذا، في رأيك، ذهبَ عليُّ إلى المصنع بعد إبلاغِ الج بوفاةِ أمِّه؟

ليطلب من إدارة المصنع إجازة

ثُمَّ نَظَرَ إلى الجَسَدِ المَيِّتِ. لم تَكُنْ مُخِيفَةً، بَلْ على العكس، كانتُ تبدو ودودةً بِنَفْسِ مُحْيَاةِهَا القَدِيمِ الخَنُونِ الرِّقِيقِ. أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ المَيِّتَةَ نِصْفَ المفتوحَتَيْنِ بِأَحَدِي يَدَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ. انطلقَ إلى الشَّارِعِ، أَخْبَرَ جَارَتَهُ المُسِنَّةَ،

هرعت الجاراتُ إلى البيتِ راكِضاتٍ، واتَّجِهَ إلى المصنَّع، وبينما كانَ على الطريقِ في القاربِ، بدا وكأنَّه قد اعتادَ على رؤية الموتِ.

لقد اعتادا على الالتحاقِ باللَّحافِ نَفْسِهِ إلى جانبِ بَعْضِيَهُمَا. وكما أخذَ الموتُ أُمَّهُ الْمُؤَنَسَةَ، أخذَ أيضًا كُلَّ مَشاعِرِها بالحنانِ والعطفِ. لكنَّه، كانَ باردًا قليلًا، والموتُ ليسَ مُخيفًا كما نظنُّ، لكنَّه باردٌ قليلًا...

ظلَّ عليُّ أيامًا عديدةً، يتفَقَّدُ غُرَفَ البيتِ بلا هَدَفٍ. ظلَّ يجلسُ ليلاً دونَ إضاءةِ النُّورِ، يُصغي للَّيْلِ، يُفكِّرُ بأُمِّه، لكنَّه لم يستطعِ البُكاءَ.

الاسترجاع

ذاتَ صَباحٍ، تقابلا وَجْهًا لوجْهٍ في غُرْفَةِ الطَّعامِ، كانتَ على نَفْسِ مائدةِ الطَّعامِ مُشرقةً هادئةً. أشعةُ الشَّمْسِ كانتَ تنعكسُ عَنْ كُلِّ إِناءٍ مَعْدَنِيٍّ. أمسَكَتُهُ مِنْ زَنْدِيهِ، وَحَدَّقَتْ في عَيْنَيْهِ. انهارَ على الكُرْسِيِّ، **وانهمرتِ الدُّموعُ** **من عَيْنَيْهِ بشِدَّةٍ كالْمَطَرِ بصمَتٍ**، ثُمَّ غادرَ ذلكَ البيتَ من غيرِ رجعةٍ.

بعدَ ذلكَ دخلَ إبريقُ السَّحْلِبِ إلى حَيَاةِ عليٍّ.

هل ما زال السماور يصنع
سعادة الصباح؟

لا لَمْ يَعِدِ السَّماورُ يصنِّعُ
سعادةَ الصَّبَّاحِ

الشِّتاءُ في مُحيطِ الخَلِيجِ أَشَدُّ وأكثَرُ ضَبابًا من (إِسطنبول) المَدِينَةِ. كانَ المُعَلِّمُونَ والسَّائِقُونَ واللَّحامُونَ وَ طُلابُ المَدارسِ والعُمَّالُ، وقد أداروا ظُهُورَهُمْ لَجدارِ المصنَّعِ الصَّخَمِ، يُمَسِّكونَ فَناجينَ السَّحْلِبِ بأَكْفِهِم المُغطاةَ بالقَفَّازاتِ الصُّوفِيَّةِ، وأنوفَهُم الرَّاشِحَةَ، تنفثُ هواءً ساخنًا كالْبَخارِ المُتصاعِدِ مِنْ **سماورٍ** **حزينٍ**، يحتسونَ جُرْعَةً جُرْعَةً سَحْلِبًا دُرَّتْ عَلَيْهِ أَحلامٌ بَعِيدَةٌ.

ذهبَ عليُّ
إبلاغَ الجارةِ